قنبرة ؟ قنبلة ؟

لا تنشأ لغة من لغات البشر وتدور على ألسنة أهلها ما لم يتسرب اليها كلمات من اللغات المجاورة . وهو ناموس طبيعي لا تسلم منه لغة . ولا تستعصي عليه لهجة . وقد تسرب الى لغتنا معشر العرب كلمات أعجمية منذ الجاهلية الأولى ولا تزال تتسرب الى يومنا هذا : فاذا فرضنا ان (سجنجل) الواردة في شعر امرئ القيس هي أولى تلك الكلمات كانت كلمة (الكوتا) مثلاً آخرها .

ومن هذه الكلمات الأعجمية ما يعرف أصله والزمن الذي تولد فيه . ومنها ما يبقى ضائع الأصل . مجهول الميلاد . أبداً أو الى حين : من ذلك كلمة (قُنبُلة) واختان لها تشبهانها وهما (قُنبُرة) بالراء و (قُنبرة) بالخاء . وثلاثتها (اي قنبلة وقنبرة وخمبرة) تدل على ما يقذفه المدفع من فمه . ولا يوجد في اللغة الفصحى كلمة استعملها العرب في معنى (قنبلة) لأن العرب لم يكن من آلات حربهم المدافع حتى يكون لها قذائف يتفننون في وضع اسماء لها كما تفننوا في وضع أسماء للسيوف والرماح والنبال . نعم : عندهم كلمة (المرامي) و (القذائف) وهي اسماء لما يُرمى به بأية طريقة كانت : فأحجار المنجنيق والمقلاع مرامي وقذائف . والسهامُ والنشّاب مرامي وقذائف . فاذا أردنا ان نستعيض عن كلمات قُنبُلة وقنبرة وخمبرة المولدات الدخيلات بكلمات عربيات أمكننا من أول نظرة أن نستعمل مكانها المرامي والقذائف . فتموتَ هذه الأعجميات كما مات من قبلها كلمتا (بومبه) الافرنسية . و (كلّه) الفارسية .

ولكن الى هذا اليوم لم تمت كلمة (قُنبُلة) بل ان الصحفَ والنشرات واذاعات الراديو التي تروي لنا اخبار الحرب الحاضرة ساعةً فساعة زادوها انتشاراً . ورفعوا الصوت بها جهاراً . وكم مرةٍ ذكرت كلمة قنبلة بأفواه الناس في مدة ست سنوات الحرب هذه ؟ تقولون : مراراً وتكراراً . هذه كلمة (القنبلة) التي تلفظ بأفواه الناس . أما القنبلة نفسها التي تلفظ بأفواه المدافع فقد قدّرت بعض مجلات الحرب الأميركية طلقاتها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بمليوني طلقة في اليوم . وطائرات (الموسكيتوس) كانت تلقي على برلين في كل ثانية من الزمن أربعة قناطير من القنابل . فالقنبلة اذن سيبقى اسمها على جهالة أصلها . وغموض نسبها متمكناً في ألسنتنا . متبوأً مكانه من لغة صحافتنا وإذاعتنا . حتى أصبح من وفاء الذمم للغة العربية وتاريخ كلماتها ان نخص القنبلة بدراسة ماتعة وافية تكريماً لها وتشنيعاً عليها في آن واحد : إذ أن من قال انها تستحق التكريم فهو صادق . ومن قال انها تستحق التشنيع فهو صادق . على حدّ ما قاله الأستاذ احمد امين في كفر ابي العلاء المعري وايمانه . ويحسن قبل الشروع في الكلام عن القنبلة أن نُنهيَ القول في تاريخ الكلمات التي تدل على معنى القنبلة والتي كثر استعمالها في لغة الحديث والكتابة وهي عشر : مِرماة . قذيفة . كُرة . كُلّة . بومبة . قُنبُلة . قُنبُرة . خُنبُرة . هاوُن . قَرَان .

* * *

١ — (مِرماة ومثلها مِرمى) وجمعها مَرامي اسم آلة من رمى يرمي . وهي أفصح أخواتها . وأعرقهن في العروبة . وأقدمهن في استعمال اهل اللسان لها . وكانت كلمة (مرماة) تستعمل عندهم اسماً للسهام أو لنوع منها ثم استعملت في أحجار المنجنيقات والعرّادات وهي المنجنيقات الصغيرات . ثم في شُعَل النار اليونانية وما تقذفه من الحدائد والأحجار .

٢ — (قذيفة) وجمعها قذائف ما يُقذف من الأشياء بواسطة اليد أو غيرها وقاذفها يسمى قذّافاً : فالمقلاع قذّاف والمنجنيق قذاف . وكلمة (قذيفة) عربية فصيحة مستعملة على قلة منذ القدم . قال الشاعر : (قذيفةُ شيطانٍ رجيم رمى بها) .

وبقيت (القذيفة) منسيةً بجانب اختها (المِرماة) حتى انتبه الكتاب المتأخرون إلى عروبتها فجعلوا يستعملونها بمعنى قنبلة المدفع .

٣ — (كُرَة) اسم عربي قديم يراد به الجسم المستدير أو تقول المدوّر وأصل الكرة (كُرْوٌ) حذفت الواو . وعوض عنها التاء ولذا يقال في النسبة اليها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كروي . واهل المغرب في لهجتهم الدارجة يسمونها (كورة) بزيادة واو بعد الكاف . وليس في لفظ (الكرة) معنى الرمي والقذف المفهومين من المرماة والقذيفة . ولذا استُعملت في غير الأدوات التي تُرمى : من ذلك استعمال المهندسين لها في الشكل الهندسي المعروف . ومن اشهر ما استُعملت فيه قولهم كرة الأرض . وكرة القدم . وكرة الصولجان

كرة ضُربت بصولجة فتلقفها رجل رجل

واكثر ما كان يستعملها الكتّاب في القرون الوسطى في مقذوفات النار اليونانية : فكانوا يقولون إن تلك النار العجيبة تستعمل في دفع كرات حجرية من أنابيب معدنية . وقد استعملها هرون الرشيد في فتح هرقلة وغنّاه مخارق بقول الشاعر :

هوت هرقلة لما أن رأت عجبًا حوائمًا ترتمي بالنفط والنار

كأن نيراننا في جنب قلعتهم مصبَّغات على أرسان قصار

والأرسان الحبال وقالوا إنه في سنة ١٢٣٨ م رمى (دون جيمس) بلنسية بكرات نارية كانت تنشق في الجو . وفي زمن الملك الصالح أيوب دافعت دمياط عن نفسها ضد القديس لويس بكرات نارية محشوة . ثم لما اختُرعت المدافع ورؤيت فوائدها مستديرة صاروا يقولون (كرات المدافع) يريدون مقذوفاتها لكن استعمال كلمة الكرات كان قليلاً بالنسبة الى استعمال (الكُلَل) أولاً و (القنابر) و (القنابل) أخيراً .

٤ — (كَلَه) بلفظها العرب بتشديد اللام و كسر الكاف وبلفظها الترك بضمها . وحرّفها الايرانيون فهم يلفظونها (كُلوله) بلامين بينهما واو . وقد وُجد اسم الكلة في لغتنا من يوم وجد (المِدفع) في بلادنا . ولفظ المِدفع عربي كما لا يخفى أما لفظ (الكُلة) فغير عربي . وقد كنت قلت في سبب تسميتها بذلك إن كَلَه المدفع في شكلها تشبه الكلة التي يلعب بها الصبيان و (كلْ) معناه الطين في اللغة الفارسية . و كَلَة الأولاد لأول عهد استعمالها كانت تتخذ من طين مجفّف . فلما رأوا كَلَة المدفع مستديرة مكوّرة شبهوها بها . وسمّوها باسمها . غير أن بعضهم يقول : إن اسم كلة المدفع مأخوذ من كلمة (كُله) أو (كُلاه) الفارسية بتخفيف اللام فيهما وهو اسم لنوع من لبوس الرأس يكون مستديراً كما يكون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مستطيلاً وقد استُعمل اسم (كلاه) في بلادنا فيما يعتمر به الدراويش ولا سيما دراويش المولوية . وقديماً رأوا قذيفة المدفع تشبه (كُلاه) الدراويش فسموها باسمه ثم حرفه العرب الى كُلَّة ورجح القائد العسكري الكبير مصطفى بك نعمت ان تكون (كُلَة) محرفة من كلمة كُرَة العربية بقلب رائها لاماً وهو قلب معهود . وطريق مسلوك ومثله جلَّخ السكين أصله جرَّخ بالراء من الچرخ وهو الدولاب بالفارسية

وشمس الدين سامي في قاموسه لم يُشر الى أن كُلَّة المدفع عربية او فارسية وقد ضبطها بضم الأول وتشديد اللام وقال انه لا حاجة الى ان تكتب الكلة (كولة) اي بزيادة واو بعد الكاف . وكل ذلك من قوله يزيد في جهالة أصلها .

واذا لم يكن اسم كُلَّة المدفع مأخوذاً من اسم كلة الصبيان . كان الأمر على العكس اي ان اسم كلة الصبيان مأخوذ من اسم كلة المدفع لما بينهما من الشبه في الشكل .

٥ — (بومبه) هي بالافرنسية (Bombe) وقد شاع استعمالها على ألسنة العرب بعد استعمالِ المدفع في بلادهم ومخالطةِ الافرنسيين لهم . ثم تنوسي استعمال لفظ (بومبه) بمرةٍ واحدة . وغطّى عليه اسم الكله .

٦ — (قُنبُلة) هذه اللفظة شاعت في لغتنا العربية شيوعَ لفظ (الكُلَّة) واكثر ما تستعمل في لغة الكتابة كما أن الكلة اكثر ما تستعمل في لغة الكلام الدارج .

٧ — (قُنبُرة) وجمعها قنابر ، قال شمس الدين سامي ويلفظها عوام الأتراك قومبارة غلطاً . وقد استعمل كتّاب العرب كلمة (قُنبره) في أوائل القرن الماضي وكادوا لا يعرفون سواها ثم غلب عليها استعمال (قُنبُلة) باللام . فأصبح أكثر وأشهر . حتى يوم الناس هذا . فانهم لا يستعملون سواها . اللهم الا ما قرأناه للامير شكيب ارسلان في كتابه (لماذا تأخر المسلمون) ص (٦٣) فهو يقول (وكانت آلاتُ القتال في عصر العرب كما هي المدافع والرشّاشات وقنابر الديناميت في هذه الأيام) ثم قال (على أنه ليست الدبابات وأخواتها هي التي تبعث الحميَّة في الصدور بل الحمية هي التي تبعث بالطبارات والدبابات والقنابر) فيظهر من هذا ان الأمير يرى ان (القنبرة) هي الأصل فتكون أجدر بالاستعمال من (القنبلة) ونعله إنما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فضّل استعمال القنابر بالراء اقتداء بأصحابه المغاربة سكان شمال افريقية فانهم اليوم يستعملونها دون القنابل باللام .

٨ — (خُنبُرة) هي القنبرة نفسها غير ان الأتراك قلبوا قافها خاء . وأكثر مايلفظونها خمبره بالميم واستعمالها مقصورعليهم الا قليلاً . وهذه الثلاثة (قُنبلة) و(قُنبرة) و(خُنبرة) هي التي نريد أن نتعرّف اصلها ونكشف عن منبتها في بحثنا هذا .

٩ — (هاون) كلمة فارسية بمعنى الجرن يُدق به الأشياء ثم استعمل عند الأتراك العثمانيين بمعنى المدفع يكون على شكل خاص . ولم نعثر على نص يدل على ان اسم هاون يطلق على القنبلة نفسها الا نصاً جاء فيه (ان العرب المحصورين في بعض مدن الأندلس أطلقوا على (الفونس) ملك كاستيل بعض هواوين من مدافع صوتها كالرعد) وذلك سنة ١٣٤٣ م (٧٤٤ هـ) فقوله (هواوين من مدافع) يُشعر بأن كلمة هواوين تستعمل أحياناً في معنى القنابر . وهذا كالجلاهق استعمله العرب اسماً للقوس وللسهم الذي يُرمى عن القوس أيضاً .

١٠ — (قزان) لفظ تركي بمعنى الخلقين (وهي القدر الكبيرة) وكان القزان يطلق على نوع من المدافع المستعملة في عهد الانكشارية وأخذوا منذ الحرب الكبرى الماضية يستعملونه في نوع من القنابل على شكل خاص تُلقيه المدافع والطيارات فيدمر ويخرب ومن تلك القزانات القزان المشؤوم الذي أُلقي بالطيارة على دمشق في اوائل هذه الحرب فرآه أهلها وكانوا يسمونه قزانا .

هذه هي الفاظ المقذوفات العشرة التي دخلت في لغتنا العربية .

ويمكن أن يُرتّب تاريخ استعمالها بحسب ترتيب تاريخ الآلات التي تقذفها .

(١) فالقوس والجلاهق والمنجنيق وما أشبهها من آلات القتال القديمة كالمقلاع كانت الأشياء المرميّة بها تسمى المرامي والقذائف .

(٢) ثم ظهرت الأنابيب المعدنية التي استخدمت في اطلاق النار اليونانية فكانت المرميات بها تسمى الكرة النارية والكرات النارية والسلاح النارّي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٣) حتى اخترع المدفع في القرن الثامن للهجرة فكانت تسمى المرميات به باسم (بومبه) الافرنسية وبالأسماء الدخيلة الأخرى مثل (كُلَّه) و (قنبرة) و (خنبرة).

(٤) ثم ظهرت مدافع الزمن الحاضر وطياراته العجيبة فأخذت تسمى المرميات بها (شرابنل) و (قزان) الخ. أو يقال ان (شرابنل) و (قزان) هما اسمان لنوع منها. أما الاسم العام الشامل فهو ما زال الى اليوم قنبلة وقنابل. بل إن آخر خبر لغوي عن هذه القنابل انهم اشتقوا من لفظها اسم فاعل وقالوا (مقنبلة) ويجمعونها على (مقنبلات) ويريدون بها الطيارات التي تقذف القنابل. وأعجب من ذاك الطيارة الأوتوماتيكية والمجنّحة التي ما زال الناس لا يعلمون ان كانت تحمل القنبلة أو هي القنبلة نفسها تتشظّى في الفضاء. كما لا يعلم إن كانت الصاروخة هي هذه القنبلة الطائرة نفسها أو انها شيء آخر! وقد أصبحنا معشر العرب مضطرين الى قبول كلمات قنبلة طائرة وصاروخة ومجنّحة واستعمالها كما هي من دون ان يكون لنا اختيار أو رأي في هذه التسمية ما دمنا نجهل شكل هذه المرميات. وكنه أمرها. وقد قال بعض كتبة الافرنج:

ان الاسم العالمي للقنبلة الطائرة هو (روبو) ومعنى (روبو) الذكاء قال: وأول ما تلقّى الأوربيون خبر هذه القنبلة الطائرة أن كاتباً من أمة (التشيك) اسمه (كاريل كابيك) ألّف مصنّفاً تخيّل فيه مستقبلاً للبشر تقوم فيه آلات ميكانيكية مقام اشخاص البشر. وتعمل أعمال البشر: من ذلك طائرة تطير وتعمل عملها بنفسها من دون ربّان يسيّرها. ومات كاريل هذا سنة ١٩٣٨ م أي قبل الحرب الحاضرة بسنة. وقد سمى طائرته التي تخيلها باسم من لغته التشيكية وهو (روسور) أي الذكاء (مشيراً بهذه التسمية الى ذكائه أو ذكاء الشخص الميكانيكي الذي يسيّر الطائرة) ثم شاع اسم (روسور) في العالم الأوروبي محوّلاً الى (روبو) أي ذكاء. وذلك بعد ان ظهرت في الوجود الطائرة الألمانية العجيبة التي تفنن كتابنا او مترجمونا في اختراع اسم لها ما بين قنبلة طائرة. أو مجنحة. أو صاروخة.. وقد كانت متخيلة وهمية فأصبحت واقعة حقيقية.

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نرجع الى بحث القنبلة : قد يقال : أما كون (خنبرة) لفظ تركي فهذا مشهور لكننا رأيناك قرنت بها كلمتي (قنبلة) و (قنبرة) وجعلتهما من معدن واحد . وجوابي على هذا أبسطه فيما يلي : سمعت بعضهم يقول إن لفظ (قنبلة) عربي الأصل وان الاستعمال نقله الى معنى كلة المدفع . وأنا أستبعد هذا القول كل البعد وأعتقد ان الأمر فيه شبه على قائله :

القَنْبَل كجعفر والقَنْبَلة كزَلْزَلة هما في اللغة العربية بمعنى الجماعة من الفرسان فكما كان العرب يقولون جريدة من الخيل كانوا يقولون قَنْبَلة من الخيل ومنه قول (الطرمّاح ابن حكيم) المتوفى سنة ٧٠ هـ :

وما مُنعت دار ولا عزّ أهلها من النـاس الا بالقنا والقنابل

وبقي شعراء العرب في الاسلام يستعملون القنابل بهذا المعنى

من ذلك قول المتنبي :

هَزَمَتْ مكارمُهُ المكارمَ كلها حتى كأنّ المكرماتِ قنابل

وقال الثعالبي يصف حرباً : (وتلاصقت القنا والقنابل . وتعانقت الصوارم والمناصل) ويريد الثعالبي بتلاصق القنا والقنابل . أن الزحام اشتد في هذه المعركة بحيث كانت (القنا) أي الرماح و (القنابل) أي طوائف الخيل بفرسانها متلازّة متلاصقة . ولا يخفى ان الطعن بالرمح يستدعي وجود فرجة بين الطاعن والمطعون فاذا كان الرمح بيد الطاعن لصيق الفارس المراد طعنه لا يمكن استعماله ولا تحريك اليد به . وفي عصر الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ كانت مراعاة التحاسين البديعية قائمةً على ساق وقدم فلا غرو اذا راعاها اكبر أدباء عصره الثعالبي واستعمل الجناس في القنا والقنابل . وقد ذكّره بهذا الاستعمال أيضاً ما بين كلمتي القنا والقنابل من الودّ القديم والألفة المسجلة في قول الطرماح :

وما مُنعت دار ولا عزّ أهلُها من الناس الا بالقَنا والقنابل

ومن الغريب ان بعض فضلاء العصر يرى ان القنابل في قول الثعالبي (وتلاصقت القنا والقنابل) قد أُريد بها ما نريده اليوم بقذائف المدافع . فقال ذلك الفاضل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما نصه (وليس المراد بالقنابل في قول الثعالبي جمع القَنْبَل بمعنى الطائفة من الخيل لأن بقية كلام الثعالبي يدل على تعانق آلات الحرب من صوارم ومناصل وقنا) انتهى . يعني وطائفة الخيل ليست من آلات الحرب فلا تكون مرادة للثعالبي بكلمة القنابل بل المراد بها الكلل المحشوة بارود فهي التي كانت تعانق القنا . أقول لكن في هذا التعانق تباعد لعمري ؛ وهل كانت كلمة (قنابل) بمعنى الكلل شائعة في عهد الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ إلى حد أن تدخل في لغة الأدب ؟ بل هل يدل التاريخ على ان القنابل كانت اخترعت بين القرنين الرابع والخامس للهجرة . وهو الزمن الذي عاش فيه الثعالبي . وهذا المستشرق (دوزي) في معجمه الذي جمع فيه الكلمات العربية غير القاموسية يقول (ان كلمة مدفع ظهرت لأول مرة في مصر سنة ٧٩٢ للهجرة) . وذكر (سيبستيان) ما يستفاد منه ان الرواة اجمعوا على ان اختراع المدفع حدث عام ١٣٨٠ للميلاد الموافق لعام ٧٨٢ هـ أي بعد زمن الثعالبي بأكثر من ثلاثمائة سنة . فاذا كان المدفع ولد بعد الثعالبي فتكون القنبلة ابنته ولدت بعد أبيها بطبيعة الحال . ثم ان كلمة (القنابر) التي تحوّل لفظها الى (قنابل) باللام لعل أول ما سمعت من السيد خليل المرادي فالها في تاريخه في ترجمة محمد بك ابي الذهب وهذه عبارته (حاصر ابو الذهب القلعة الدمشيقة ونصب لها الأطواب من المرج الأخضر وضربها بالقنابر) اه وكان ذلك في سنة ١٨٥ هـ (١٧٧١ م) أي منذ مائة وخمس وسبعين سنة فكلمة (قُنبلة وقنابل) لا يعرفها أدباء العرب في القرون الوسطى بمعنى كلة المدفع وكل ما في الأمر ان لفظها يشبه لفظ القَنْبَلة العربية التي معناها جماعة الخيل .

يتبع :

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net